الى الاهمية التي كانت تحتلها البساتين عند العراقيين القدماء حيث نصت احدى مواد القانون على معاقبة كل من يقتطع شجرة من بستان بعقوبة قاسية .

اما البساتين الاخرى في بلاد بابل فقد طغت بساتين النخيل على جميع انواع الاشجار الاخرى .وبديهي ان الاعمال المطلوبة في البساتين تختلف عما هي في الحقول الزراعية سواء من حيث النوعية او المدة او الوقت كما تختلف عقود المزارعة بين مالك الارض والبستاني ، وقد نصت قوانين حمورابي على تنظيم عقود المزارعة بين المالك والبستاني وحددت مسؤولية كل طرف وواجباته والتزاماته وحصته من الغلة .

ويبدو ان العراقيين القدماء قد اتبعوا الاساليب الصحيحة في غرس النخيل وتنظيم البساتين الواسعة وترك المسافات النظامية بين الاشجار واتباع طرق التلقيح الاصطناعية المعروفة واتباع اسلوب تكثير النخيل بواسطة غرس الفسائل او التال . مما يشير الا انهم كانوا على علم بأن التكثير بواسطة النوى ينتج اشجارا ضعيفة معظمهما من اشجار الذكر (الفحول) التي لا تحمل تمرا . اما اسلوب الزراعة ، فكان الشائع هو اسلوب المشاركة حيث كان على البستاني ان يغتني بالبستان لمدة اربع سنوات دون ان يدفع اية اجرة وله ان يستغل المساحات الواقعة بين الاشجار في زراعة المخضرات وغيرها من المحاصيل الموسمية ، وفي السنة الخامسة كان عليه ان يتقاسم التمر مع المالك مناصفة ، فان اهمل في عمله ، تحمل نتائج اهماله وذلك بأن يقتطع من نصيبه الضرر الذى تسبب به . اما اذا تم الاتفاق بين صاحب البستان والبستاني لتأجير بستان كاملة وجاهزة للتلقيح ، عندئذ يكون نصيب البستاني النصف فقط .

التجارة

المبحث الثاني :

لم تكن شهرة العراق القديم بالتجارة اقل من شهرته في الصناعة وقد اشار الى ذلك العديد من الكتاب القدماء كالاغريق والرومان وتحدثوا عن النظم التجارية

Scanned by CamScanner

التي كانت سائدة في العراق القديم ، وكان لموقع العراق الستراتيجي المهم اثره في نشوء وتطور التجارة والى اهتمام العراقيين القدماء بتنظيمها وتوفير الطرق الخارجية ومستلزماتها كما كان لافتقار العراق الى بعض مواد الخام الضرورية اهمية في دفع العراقيين القدماء الى العمل على توفير تلك المواد من الخارج عن طريق التجارة . وكان من نتائج اهتمام العراقيين القدماء بالتجارة انهم ابتدعوا الوسائل التي كانت سببا في تنشيط التجارة الداخلية والخارجية كابتداع العجلة والسفينة واستخدام نظم دقيقة للموازين والمكاييل واستخدام الحبوب والمعادن كوسيلة لتنظيم الاثمان بدلا من النقود التي لم تعرف حتى القرن السابع قبل الميلاد اضافة الى وضع النظم والتعليمات والقوانين التي تحكم اساليب البيع والشراء والرهن وغيرها من المعاملات التجارية حتى غدت تلك النظم والاساليب اساسا اقتبسته الاقوام المجاورة ، كالاراميين واليهود ، والاقوام الاخرى التي اتصلت بالعراق . كالاغريق والرومان والفرس واقامت عليه نظمها التجارية الخاصة يؤيد ذلك انتقال العديد من المصطلحات التجارية الفنية الى لغات تلك الاقوام واتباعها اساليب ونظم تجارية مشابهة لتلك الموجودة في العراق القديم .

وبغية تسهيل البحث ، سنتطرق الى التجارة الخارجية في العراق القديم اولا ثم تناول التجارة الداخلية ونظمها .

التجـــارة الخارجيـــــة (١) :

يفتقر العراق ، كما اشرنا الى بعض المواد الخام الضرورية لقيام الحضـــارات الناتجة كالمعادن على اختلافها والاحجار والاخشاب اللازمة لبناء القصور والمعـابـد وتزيينها . وكان ذلك سببا مباشرا وعاملا مهما لنشوء التجارة الخارجية مع البلدان المجاورة منذ وقت مبكر . كما كان ذلك من العوامل الرئيسية التي ادت الى نشوء الرغبة فـــي توحيد البلاد والقضاء على نظام دويلات المدن الذي كان بسود العراق في عصور فجر

---

(١) انظر :

W.F. Leemans, Foreign Trade in the old Babylonian Period (1960).

Scanned by CamScanner

السلالات واقامة دولة القطر الموحدة التي تتمكن من السيطرة على طرق المواصلات التجارية ، فقامت الحروب والمنازعات بين تلك الا يولات حتى انتهت بتوحيد البلاد تحت ادارة مركزية واحدة منذ القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد عند قيام الدولة ، الاكدية فكان ذلك من اسباب نشاط التجارة الخارجية وتطورها .

نشوء التجارة الخارجية :

من الممكن تتبع تاريخ نشوء التجارة الخارجية بين العراق والبلدان المجـــاورة الى عصور ما قبل التاريخ وذلك من خلال الآثار المادية المكتشفة في العراق ومن خلال التأثيرات الحضارية التي خلفها العراقيون القدماء في الاقطار الاجنبية التي تاجروا معها او الطرز الفنية التي جاءوا بها الى العراق .

فاما بالنسبة للآثار المادية ، فقد عثر في موقع جرمو قرب كركوك ، وهو من اقدم مواقع استطيان الانسان في المنطقة ، وموقع حسونة قرب الموصل ، علي مواد مصنوعة من حجر الاويزيدى ، وهو نوع من الحجر لا يتوفر في العراق بل ان اقرب منطقة يوجد فيها هي منطقة أرمينية . اضافة الى ذلك ، فقد عثر على بعض الحلي المصنوعة من انواع مختلفة من الاحجار الكريمة التي يظن انها جلبت من منطقة الخليج العربي اما النحاس ، فقد وجد منذ عصر جرمو ايضا اولا بد انه جلب من بلاد ايران والاناضول اما في القسم الجنوبي من العراق ، فان استخدام خشب الارز والصنوبر منذ عهد العبيد واستخدام بعض انواع البخور يشير الى وجود علاقات تجارية بين سكان طور العبيد وسكان مدن ساحل البحر المتوسط التي جلبوا منها الاخشاب وبعض البلدان البعيدة الواقعة الى ما وراء الخليج العربي ، كالهند مثلا ، التي جلبوا منها العطور والبخور.

ومن جهة اخرى ، يمكن ملاحظة التأثيرات الحضارية الفنية المتبادلة بين العراق ومدن سواحل البحر المتوسط وبلاد عيلام وبلاد الاناضول كما يمكـن ملاحظـة بعض التاثيرات الحضارية العراقية القديمة في بلاد وادى النيل وذلك منذ العهد الشبيه بالكتابي . ويظهر ذلك جليا في اتباع الطراز المعمارى المعروف في عصر الوركاء في العراق القديم بأسلوب طراز المطلعات والدخلات في بناء جدران المعابد والقصور وكذلـك

Scanned by CamScanner

في استخدام الاختام الاسطوانية التي نشأت في العراق في عصر الوركاء وجمدة نصر ومنها انتشرت الى بقية انحاء المنطقة .

واصبحت العلاقات التجارية الخارجية مع البلدان المجاورة وبعض البلدان البعيدة الواسعة منتظمة كما يستدل على ذلك من النصوص المسمارية الكثيرة . وتذكر لنا النصوص المسمارية ثلاث بلدان قامت معها علاقات تجارية منذ اقدم الازمنة التاريخية وهي دلمون وميلوخا ومكان . وقد اختلف الباحثون في تحديد مواقع هذه المناطق بالنسبة لخارطة المنطقة في الوقت الحاضر غير ان الرأى الغالب ان دلمون هي البحرين و «مكان» هي منطقة عمان اما «ملوخا) ، فتضاربت الاراء بشأن تحديد موقعها فهناك من يرى بأنها تقع في بلوخستان او قرب الباكستان او انها في جنوبي شبه الجزيرة العربية بينما يرى فريق آخر بانها تقع في بلاد الصومال او النوبة وتشير الوثائق المسمارية الى وجود علاقات تجارية وثيقة بين بلاد سومر واكد وبين هذه البلدان الثلاث حتى اواسط الالف الثالث قبل الميلاد وقد تفاخر الملوك سرجون الاكدي بان سفن دلمون وميلوخا ومكان كانت ترسو في ميناء عاصمة أكد محملة بالبضائع المختلفة .

وتنطتع اخبار ميلوخا نعد عهد سرجون لأسباب غير معروفة بينما تستمر العلاقة مع مكان حتى نهاية عصر سلالة اور الثالثة . وبعد عصر سلالة اور الثالثة تظهر دلمون فقط كمركز تجارى رئيس فيما وراء الخليج العربي .وكان اللؤلؤ (او كما كان سماه السومريون انفسهم عيون السمك) من اهم صادرات دلمون الى بلاسومر وأكد . وفدا اسم دلمون مقرونا بالتجارة والتجار حتى اصبح مصطلح « رجل من دلمون » يستخدم للدلالة على التاجر .

اما بالنسبة للبلدان الاخرى ، فقد اشارت النصوص المسمارية وكذلك الاثار المادية المكتشفة الى وجود علاقات تجارية مع بلاد الاناضول وبلانسوريا وبعض جزر البحر المتوسط كجزيرة كريت وصقلية . وقد ذكرت النصوص المسمارية ان الملك سرجون الاكدي قام بحملة عسكرية على بلاد آسيا الصغرى لحماية مستعمرة تجارية اكدية بينما اظهرت التنقيات الأثرية في منطقة كول تبة في آسيا الصغرى وجود جاليات

Scanned by CamScanner

تجارية آشورية منذ مطلع الالف الثاني قبل الميلاد اقامت لها مستوطان خاصة،لها نظامها الاداري والقانوني والاجتماعي المستقل والمرتبط ببلاد آشور وقد كشفت التنقيات عن احد هذه المستوطنات في المنطقة التي كانت تعرف قديما باسم كانيش وعثر فيها على اعداد كبيرة من الرقم الطينية التي تضمنت كثيرا من الوثائق الاقتصادية التي توضح النشاط التجاري الآشوري في المنطقة . كما عثر على بعض الالواح التي تضم عددا من المواد القانونية التي كانت تطبق في المستوطنة وقد اطلق عليها « القوانين الآشورية القديمة » .

ومما يلاحظ من دراسة الرثم الطينية المكتشفة في «كانيش »

ان التجار الآشوريين حافظوا على ثقافتهم وتقاليدهم

ولم يتأثروا الا قليلا بمحيطهم الجديد في آسيا الصغرى واعتبروا انفسهم جزا من بلاد آشور وكانوا على اتصال وثيق ببلاد آشور . اما علاقاتهم بالسكان المحليين فيبدو انها كانت سليمة وقائمة على المصالح المشتركة .

وكان التجار الآشوريون في آسيا الصغرى يقومون بدور الوسيط بين تجار بلاد آشور وتجار آسيا الصغرى كما كانوا يبادلون البضائع وينقلون الاموال والحوالات النقدية . وقد اضمحلت مستوطنات التجار الأشوريين هذه في حدود ١٨٠٠ ق . م . بسبب التحركات المصرفية الواسعة التي شهدتها المنطقة وادت بالتالي الى ظهور قوة الميتانيين والحثيين .

وفي العهد الآشوري الحديث ، كانت الدولة الآشورية تعمل جاهدة للسيطرة على طريق التجارة المؤدية الى مصادر المواد الخام في آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين اضافة الى القسم الجنوبي من العراق . وقد قامت من اجل ذلك بالعديد من الحملات العسكرية التي اخضعت خلالها معظم البلدان والاقاليم المجاورة وضمنت أمن وسلامة الطرق التجارية الخارجية ،فكانت تجارتها مربحة ، كما تحكمت بلاد آشور بالتجارة مع بلاد وادي النيل ومنعت في بعض الاحايين تصدير الاخشاب من لبنان الى مصر .وعندما فقدت الدولة البابلية الحديثة سيطرتها على الطرق التجارية القديمة المارة بايران وسوريا ، اتجه الملك نبونائيد الى الغرب وقام بحملة ، فسيطر على عدد من المدن والواحات الواقعة في شمال شبه

Scanned by CamScanner

الجزيرة واقام في واجة نيماء مدة تقرب من عشر سنوات واتخذها قاعدة لتنفيذ سياسته الجديدة .

وكانت التجارة الخارجية من العوامل الرئيسية لقيام الحروب وتجهيز الحملات العسكرية لاسيما في العهود الآشورية والبابلية المتأخرة فوجود عدد كبير من الممالك والدويلات في بلاد سوريا وضرورة دفع الضرائب الى كل دويلة تمر بها القوافل اثقل كاهل التجار وزاد في كلفة البضائع كما ان صعوبة تأمين سلامة طرق المواصلات المارة بتلك الدويلات كل ذلك دفع الملوك الآشوريين الى القيام بحملاتهم العسكرية للسيطرة على تلك الممالك والدويلات ووضعها تحت النفوذ او الحكم الآشوري . وبالنسبة للمناطق الشمالية والشمالية الشرقية ، كان اي عصيان او تمرد فيهـــا يعني توقف التجارة عبر الطرق المارة بها . لذا سعى الملوك الآشوريون الى نشر الاستقرار في المنطقة عن طريق القوة وبذلك امنوا طرق المواصلات التجارية . وكان من النتائج المهمة التي نتجت عن نشاط التجارة الخارجية في العراق القديم انتشار كثير من المقومات الحضارية العراقية القديمة الى البلدان التي تاجرت مع العراق وكذلك انتقال بعض التأثيرات الحضارية من تلك البلدان الى العراق .

اهم الصادرات والواردات :

ذكرنا بان العراق لم يكن من البلدان الغنية بالمواد الضرورية الحضارات وازدهارها كالمعادن والاخشاب والاحجار ، لذا اتجه العراقيون القدماء منذ اقدم الازمنة الى الى استيراد هذه المواد من البلدان الخارجية كما عملوا في الوقت نفسه على تصدير بعض المواد المتوفرة لديهم بالمقابل .وكان من اهم المواد التي صدرها العراق الى البلدان الاجنبية المحاصيل الزراعية وفي مقدمتها الحبوب وبعض المواد النباتية المصنعة كزيت الزيتون والمنتوجات الحيوانية كالصوف والجلود والزيوت النباتية . وكان من جملة صادرات العراق ايضا بعض المصنوعات المحلية الجميلة والدقيقة ذات الاثمان الغالية والوزن الخفيف الذي يسهل معه نقلها كالاختام الاسطوانية والمنسوجات على اختلافها والاواني المزخرفة وبعض الصناعات اليدوية الاخري .

Scanned by CamScanner

ولم يكتف العراقيون القدماء بتصدير ما لديهم من مواد محلية بل قاموا بدور الوسيط لاستيراد بعض المواد ، كالفضة والقصدير والاصباغ والعطور ، ومن ثم اعادة تصديرها الى البلدان التي لاتتوفر فيها تلك المواد وكان ذلك متعارفا في التجارة الخارجية واسلوبا لا زال يتبع حتى الوقت الحاضر من قبل العديد من البلدان .

اما واردات العراق ، فكثيرة ومتنوعة وتأتي في مقدمتها المعادن على اختلافها والاخشاب والعاج والرقيق والعطور والبخور وادوات الزينة والاصباغ وغيرها .

فاما الذهب ، فقد ورد ذكره في نصوص سلالة اور الثالثة وربما كان استيراده من منطقة دلمون التي كانت تقوم بدور الوسيط ايضا في تجارة بعض المعادن .وكان الذهب يستخدم ، كما في الوقت الحاضر ، على نطاق ضيق لصناعة الحلي وادوات الزينة بعض التماثيل والادوات ذات الاهمية وكان سعره يوازي ستة امثال سعر الفضة تقريبا .

اما الفضة ، فكانت منتشرة انتشارا واسعا في العراق وكانت تستورد غالبا من المناطق الشمالية الغربية ومن آسيا الصغرى . وقد استخدمت الفضة لتقييم الاثمان وصنعت منها الحلقات والصفائح ذات الاوزان المحدودة كما استخدمت لصناعة وتزيين بعض التماثيل والاواني والادوات المهمة اضافة الى صياغة الحلي وادوات الزينة منها

وكان النحاس يستورد من منطقة «مكان» منذ عهد سلالة اور الثالثة ومن دلمون في العهد البابلي القديم كما استورده الآشوريون وعلى نطاق واسع من اسيا الصغرى . وانشر استخدام النحاس في بلاد آشور وصنعت منه الاسلحة والاواني وكان سعره مرتفعا في بلاد آشور قياسا مع بلاد بابل .

كما كان القصدير ، وهو من المعادن المهمة ، يستورد من المناطق الشرقية والشمالية الشرقية ومنها يصدر الى المستوطنات الآشورية التجاريةفي منطقة كيدوكيا في آسيا الصغرى وكانت الحاجة اليه لصناعة البرونز ، ولم ينتشر القصدير في جنوب العراق كما انتشر في بلاد آشور .

Scanned by CamScanner

وعثر المنقبون في مدن العراق المختلفة على انواع عديدة من الاحجار الثمينة والنادرة وامكن معرفة مصادر تلك الاحجار من بعض النصوص المسمارية التي تذكر اسماءها والى جانبها اسماء البلدان والاقاليم التي كانت تجلب منها . وكانت الاحجار الثمينة تستخدم لصناعة الحلي وادوات الزينة بالدرجة الاولى كما استخدمت في تزيين المعابد والتماثيل . واستخدم حجر الديوريت والاوفيدى لعمل النصب والتماثيل والمسلات والاختام الاسطوانية .ومن الاحجار الثمينة التي كانت معروفة آنذاك حجر اللازورد والعقيق والديوريت .

وذكر العاج في العديد من نصوص سلالة اور الثالثة على انه كان يستورد من دلمون التي كانت تستورده بدورها من الهند او وادي النيل ، غير ان اهم الآثار العاجية المكتشفة في العراق جاءتنا من مدينة كلخو (النمرود) الآشورية وربما كان الآشوريون يستوردون العاج من وادي النيل عن طريق سوريا او مباشرة . واستخدم العاج لصناعة الاواني والمزهريات الجميلة والتماثيل كما صنعت منه الآت الزينة كالامشاط والمكاحل وعملت منه الواح للكتابة وزينت به قطع الأثاث الملكية وانتشر استخدامه انتشارا واسعا في بلاد آشور لاسيما في العهد الآشوري الحديث وكانت صناعته وزخرفته وحفره من ادق الصناعات الفنية وقد استفاد الآشوريون من الفنانين السوريين الذين جلبهم الملوك الآشوريون الى بلاد آشور في اسلوب حفر ونحت العاج .

ومن المواد الصرورية التي اشتوردها العراقيون القدماء من «مكان» وميلوخا في عهد سلالة اور الثالثة ومن جبال لبنان في العصر الاكادي والعصور التالية هي الاخشاب على اختلافها اللازمة لصناعة الاثاث وتسقيف القصور والمعابد وبناء السفن . وقد امكن معرفة اسماء وانواع الاخشاب المستوردة ومصادرها من بعض النصوص المسمارية.

وكان من جملة ما استورده العراقيون القدماء من البلدان المجاورة الرقيق حتى ان العلامة الصورية التي استخدمت للدلالة على الرقيق تتألف من علامتين مركبتين تحدد الاولى جنس الرقيق بينما تعني الثانية « جبل » او « بلد اجنبي » مما يشير الى ان مصدر الرقيق الاول كان من خارج البلاد . واشارت قوانين حمورابي الى تنظيم تجارة الرقيق

Scanned by CamScanner

من البلدان الاجنبية كما أشارت النصوص المسمارية الى قيام التجار البابليين بشراء الرقيق من المناطق الشمالية والشرقية وبيعهم في بلاد بابل وآشور بسعر مرتفع .

واضافة الى المواد المستوردة المذكورة آنفا هناك بضائع أخرى كان العراقيون القدماء يستوردونها من الخارج مثل العطور والبخور واللبان والخمور والتوابل وكانت معظم هذه المواد تأتي من بلدان بعيدة كالهند وجنوب الجزيرة العربية وبعض بلدان افريقيا اما بشكل مباشر او عن طريق بلدان اخرى كدلمون وسوريا .

٢ – التجارة الداخلية :

ان نظرة سريعة الى محتوى النصوص المسمارية الكثيرة المكتشفة في مدن العراق المختلفة تشير بكل وضوح الى اهمية التجارة في حياة العراقيين القدماء والى تقدم وتطور ونضج النظم والمعاملات التجارية التي كانت متبعة آنذاك الى درجة يمكن مقارنتها مع النظم التجارية السائدة في الوقت الحاضر . اضافة الى ذلك ، فأن اكثر من ٩٠ ٪ من مجموع النصوص المسمارية المكتشفة والتي تجاوز عددها مئات الآلاف له علاقة مباشرة او غير مباشرة بالناحية الاقتصادية بصورة عامة حتى ان بعض الباحثين اطلق على المجتمع العراقي القديم صفة المجتمع التجاري او مجتمع التجار ، ولا سيما في العهد البابلي القديم ، عندما عمت التجارة الخاصة وتقلصت نشاطات الدولة والمعبد في المجال التجاري . ومن جملة النصوص الاقتصادية الكثيرة مجموعة كبيرة من العقود التجارية التي تضم عقود بيع وشراء ورهن وايجار وقرض ومشاركة وتسليف وغيرها من المعاملات التجارية الكثيرة ، كما يلاحظ ان القوانين البابلية القديمة ، وفي مقدمتها قانون حمورابي وقانون اشنونا ، قد خصصت جزءا كبيرا من موادها لتنظيم الحياة الاقتصادية ووضع الضوابط والاحكام الخاصة بالتجارة والتجار وحددت اسلوب التعامل ومسؤولية الاطراف المتعاقدة ، سواء في معاملات البيع او الرهن او الايجار او غيرها ، وثبتت الموازين والمكاييل وشددت في مراقبتها وحددت اسعار المواد الضرورية وغير ذلك من الامور ذات العلاقة بتنظيم الحياة الاقتصادية غير ان النظم والتقاليد والاعراف التي

Scanned by CamScanner

كانت متبعة في الحياة الاقتصادية بصورة عامة لم تكن واحدة في العراق في جميع العصور ومختلف الاقاليم والمناطق بل كانت تتغير في التفاصيل من وقت لآخر بينما ضلت الخطوط الرئيسية واحدة على مر العصور وفيما يلي لمحات عن بعض اوجه التجارة الداخلية في العراق القديم بصورة عامة .

الاسواق :

قد يبدو غريبا ان نقول بان معلوماتنا عن الاسواق في العراق القديم واسلوب تنظيمها ومواقعها وكيفية العمل فيها قليلة جدا اذا ماقورنت بعدد الوثائق التجارية الكبير المتوفر لدينا . ولكن الواقع ان الاشارة الى الاسواق في الوثائق التجارية لم يكن ضرورة تحتمها اساليب التعامل والمعاملات شأنها بذلك شأن الكثير من الاوجه الحضارية المختلفة التى لم تذكرها النصوص المسمارية الا عرضا غير انه يمكن الاستدلال عليها عن طريق الاستنتاج . فليس في النصوص المسمارية نصوص عامة تتحدث عن التجارة او الصناعة او الفن او الدين او غيرها بل هناك نصوص خاصة تتحدث عن حالات وامور محددة فقط تتعلق بفرد واحد او مجموعة افراد . وازاء هذا النقص الواضح في المعلومات عن الاسواق العراقية القديمة فقد اعتقد العالم بولاني بأنه لم يكن في العراق القديم اسواق تجارية بالمعنى المفهوم لدينا كما انه لم يكن في المدن العراقية القديمة اماكن مناسبة تتسع لتضم محلات التجار والباعة ، اي انه لم يكن هناك ساحات او اجنحة واسعة لتكون اسواقا عامة للناس يقومون فيها بمعاملات البيع والشراء ، وقد اعتمد بولاني في أسناد راية هذا على ما قاله هيرودتس عن احوال العراق وايران في عهد الفرس الاخمينيين بأنه لم يكن لديهم اسواق كالتي كان يحيط بوابات المدن الرئيسة ساحات واسعة يمكن ان تكون محلا مناسبا لاقامة الاسواق كما كانت الحالة في العصور التالية ، ويويد دلك ان اسم احد المداخل الرئيسة في مدينة نينوى كان يسمى (باب التسلم (اي (باب البيع)

Scanned by CamScanner